المحاضرة الثانية عشر: تحليل النصوص الدينية.

الهدف الخاص:

- أن يتمكن الطالب من تحليل نص ديني وفق منهجية التحليل السياقي للنصوص

الهدف الإجرائي:

- أن يستخرج أنواع السياق من نص ديني معيّن

قصة سيدنا إبراهيم .

لقد حملت قصص الأنبياء مع ربّهم تعالى في القرآن الكريم تكثيفا دلاليا عميقا حفّه سياق خاص أسهم بشكل كبير في تحديد الدلالة القرآنية الناتجة عن التّفاعل بين أنواع السّياق الأربعة أي: السياق اللّغوي، السياق التاريخي أو ما يسمّى بسياق التنزيل، السياق الثّقافي، وسياق الحال؛ ذلك أنّ للمقام دورا هاما في بيان الدلالة وإفهام البعد الاجتماعي الثقافي الذي احتضن النسيج اللغوي

فسياق التنزيل هو الفضاء الذي تكتسب فيه الكلمات دلالاتها الحقيقية إذ تحت معيّته يتحدّد التصنيف إن كانت مركزية أم هامشية، كما لا يُمكن إغفال الأسباب خاصة وراء نزول الآي والسور أثناء الدراسة الدلالية لمادة قرآنية معينة، ومن ثمّ فالمقام يعين بشكل أكبر على تحديد الدلالة القرآنية الدقيقة ليس على النحو المتعارف إنّما على حسب المقامات والمواقف القرآنية، فكلّ مقام يؤدّى فيه المقال القرآني تتحدّد دلالات قد تُخالف ما يُمكن أن يقال في غير مقامها خصوصا وأنّ الكلمات تتعدد دلالاتها، ومن ثمّ فالمواقف والأحوال المقالية هي الأخرى تساعد على التحديد الدلالي.

وقصة سيدنا إبراهيم عليه السّلام في القرآن الكريم قد احتضنها سياق خاص تتبّع أبعادها الدلالية وكشف من خلالها عن دلالات مغايرة عما كان معروفا من عبادة الأصنام ومختلف الوسائط الأرضية والسماوية، خصوصا وأنّ بدايته المعرفية كانت برؤية إلهامية توفيقة ليتدبر في ملكوت السماوات والأرض إلى الرؤية في كيفية إحياء الموتى وهو جانب غيبي، ليصل إلى درجة العلم الكامل والإدراك الثابت الذي لاشكّ معه.

وما بين الرؤيتين يُظهر السياق القرآني لهذه القصة مجموعة من الدلالات متضادة المفاهيم حُدّدت من جملة المناظرات التي أداها في مواقف مختلفة مع قومه، إذ عمل على تغيير مفهومها الثقافي بإدخالها في سياق مغاير يعبّر عن نظام مفهومي متميّز وعن رؤية ثقافية خاصة للوجود.

وإذا ما أردنا تتبّع البعد السياقي الدلالي لهذه القصة لوجدناه ملخّصا في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[الأنعام:74،84]

لقد جاءت الآيات المذكورات سابقا في سورة الأنعام وهي سورة مكيّة بالاتّفاق، ومعلوم أنّ المكي جاء لترسيخ العقيدة الصحيحة والإيمان السليم، ويُثبت سياق التنزيل أنّها نزلت لـ:

أ."ذكر مجادلة أوّل رسول أعلن التوحيد وناظر في إبطال الشرك بالحجة الدّامغة والمناظرة السّاطعة، لأنّها أعدل حجّة في تاريخ الدّين إذ كانت مجادلة رسول لأبيه ولقومه، وكانت أكبر حجّة للمشركين من العرب بأنّ أباهم لم يكن مشركا ولا مقرّا للشرك في قومه، وأعظم حجّة للرسول صلى الله عليه وسلم إذ جاءهم بالإقلاع عن الشرك" (عاشور، 1984، ج7، صفحة 36)

ب. "بيان أنّ التقوى الحقّ ليست مجرّد حرمان النفس من الطيبات بل هي حرمان النفس من الشهوات التي تحول بين النفس وبين الكمال والتزكية" (عاشور، 1984، ج7، صفحة 124).

ا.<u>سياق المناظرات:</u>

لقد جاءت مناظرة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه في عديد السياقات، فتارة مع أبيه وأخرى مع فريق من قومه، وثالثة مع النمرود، وقد تعدّدت المواقف بين الأصنام الأرضية وبين الكواكب السيارة ما جعل التفاعل السياقي يُخرج في كلّ مرة مجموعة من الدلالات حسب المقام الذي استحضر النسيج اللغوي وقرائنه المختلفة، بذا سنبدأ بما بدأ به القرآن وهو المناظرة مع أبيه.

1. <u>المناظرة مع أبيه</u>:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ}[الأنعام:74]

إنّ السياق اللغوي لهذه الآية الكريمة الممثّل في التركيب اللفظي والتآلف الدقيق بينها بوساطة القرائن السياقية المختلفة يُعين على تحديد مجموعة من الدلالات الهامّة، ومن أولى هذه الكلمات هي كلمة (الأصنام)، والصّنم هو: "تمثال من حجر أو خشب أو معدن كانوا يزعمون أنّ عبادته تقرّبهم إلى الله، والجمع أصنام" (معجم المعاني العام، حرف الصاد)، وأهمية هذه الكلمة تكمن في كونها مرتبطة بعقيدة قوم جرت

العادة والتوارث المعرفي على عبادتها واعتقادها الوسيط الحق الذّي يُقرّب إلى الله تعالى إذ جاءت في سياق استفهامي انكاري لهذا السلوك التعبّدي والفهم التقليدي: {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً}، إضافة إلى ورودها في مقام مناظرة دارت بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وأبيه؛ ففي هذا الموقف يستفسر عن ماهية الأصنام ومن ثمّ يُطوقها بالاستدلال المنطقي للبرهنة على عدم استحقاقها للعبادة، وهذا الانكار يُثبت أنّه مخالف لحقيقة ومعرفة المُنكر، لذا أحاط التفاعل السياقي هذه الكلمة بعناية خاصة يحدّد من خلالها دلالتها الحقيقية والدلالة المضادة لها.

كما أنّ إيرادها بصيغة الجمع{أَصْنَامًا آلِهَةً } يبيّن تعدّد المعبودات في البيئة الاجتماعية، فقد ثبت أنّ قوم سيّدنا إبراهيم عليه السلام: "يعبدون الكواكب وأنّهم على دين الصابئة وقد كان ذلك الدّين شائعا في بلاد الكلدان التّي نشأ فيها إبراهيم عليه السلام، وأنّ الأصنام التي كانوا يعبدونها أرادوا بها أنّها صور الكواكب وتماثيل لها على حساب تخيّلاتهم وأساطيرهم" (عاشور، صفحة 314)، فدلّ أنّ إبراهيم عليه السلام قد أنكر هذا التعدّد إضافة إلى إنكار الشرك. ولفساد الفكر القومي وثقافة المجتمع حكم عليهم بالضلال المبين الواضح للمشاهِد، والضلال هو: "العدول عن الصراط المستقيم ويُضاده الهداية ويقال لكلّ عدول عن المنهج ضلال" (الكفولي، 1998، ط2، صفحة 576)، من ثمّ حدّد السياق "الضلال" دلالة ثانوية تحيط بالفكر القومي وثقافة تلك الأمّة وجعلها لصيقة بالأصنام وهي ضدّ الهداية.

ويبدو جليا أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام قد بدأ في مناظرة أبيه "آزر"، ذلك أنّ من الحكمة أن يبدأ في إرشاده ونصحه وبيان الوجه الحق له، "ومباشرته إياه بهذا القول الغليظ كانت في بضع مجادلاته لأبيه بعد أن تقدّم له بالدّعوة بالرّفق ... فلمّا رأى تصميمه على الكفر سلّم معه الغلظة استقصاء لأساليب الموعظة لعلّ بعضها أن يكون أنجع في نفس أبيه من بعض فإنّ للنفوس مسالك ولمجال أنظارها ميادين متفاوتة ولذلك قال الله تعالى لرسولهﷺ{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[النحل:125] وقال له في موضع آخر: {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}[التوبة: 73]. فحكى الله عن إبراهيم في هذه الآية بعض مواقفه مع أبيه وليس في ذلك ما ينافي البُرور به لأنّ المجاهرة بالحقّ دون سبّ ولا اعتداء لا تنافي البرور" (عاشور، صفحة 314).

ولأنّ الأسلوب الدعوي القرآني يبدأ باللين والحوار في عادته فإنّ السياق قد أظهر هذه المواجهة في مقام آخر يسبق المقام الذي أظهرته الآية، في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئ * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا}[مريم: 42، 48]

إنّ هذه المناظرة أساسها العقل والمنطق كي يبيّن لأبيه آزر بطلان ما يعبد بعدما أتاه العلم الكامل واليقين من ربّه: {ولقد آتينا إبراهيم رُشده من قبل وكنا به عالمين} والرشد هو "التعقّل والصواب" (معجم المعاني الجامع، حرف الراء)، حيث مثلت هذه الآيات في هذا المقام إيضاحا لدلالة الحق ودلالة ضدّها أي الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تُغني شيئا.

فالسياق اللّغوي لهذه الآي الكريمة يُحدّد دلالة "العلم"؛ ذلك أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام يبيّن لأبيه أنّ العلم الذي جاءه من ربّه هو السراط القويم وهو اليقين الذي ليس معه شك، في حين ما يعبده أبوه من أصنام إنّما هو "الجهل" كونه: "الاعتقاد الجازم الذي لا يتّفق مع الحقيقة" (معجم المعاني الجامع، حرف الجيم) ، وهذه الحقيقة هي التوحيد.

ولتأكيد ذلك أبرز السياق كلمة "الشيطان" كدلالة ثانوية توضّح الدلالة المركزية "الله المتصف بالرّحمة": {يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا}[مريم:44]، فتكرّر مرتين تأكيدا أنّ السلوك التعبدي المتوارث إنّما هو غواية من الشيطان وصدّ له عن الصراط المستقيم ذلك أنّه يقعد في بابه: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}[الأعراف: 16]، وفي موضع آخر: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[ص:82، 83]، لذلك يجد الملاحِظ أنّ هذه الكلمة تقف ندا للصراط المستقيم. من هذا، يدلّ السياق على طريقين مختلفين؛ أي الصراط المستقيم الذي هو العلم واليقين وطريق عبادة الأصنام الذي هو الجهل والغواية، وهو إذ يُكرّر "يا أبت" في كلّ مرة يعمل على ترابط النسيج اللغوي ويساهم في تحديد الدلالات القرآنية الجديدة.

كما أنّ مقال سيدنا إبراهيم عليه السلام يُبرز دلالة الحِلم في مقابل دلالة السِفه، وقد جاء في لسان العرب: "الحِلم، بالكسرة: الأناة والتّعقّل... والحِلم نقيض السَّفَهِ" (منظور، صفحة 213)، إذ نلاحظ أنّ صفة **الحِلم** قد برزت في المقال الإبراهيمي من خلال التّواضع والتعقّل والصبر على سفاهة الأب وطيشه والتأني في دعوته إلى العلم ومعرفة الحق وحرصه الشّديد على انضمامه إلى سياق الإيمان، خصوصا وأنّه مع أب تُشحن العاطفة اتّجاهه بالمحبة: {قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}[مريم: 47]، وقد منح المقال جزءا أكبر لسيدنا إبراهيم عليه السلام لتعريف الحق وإبراز دلالة التوحيد فأظهر ثباتا لنصرته وإرادة في إصلاح حال المجتمع، وهي دلالات تُبيّن قوة العقل والعلم والنهج القويم للاستدلال على الضلال المبين، والله تعالى قد أثبت صفة الحلم في هذا العبد المخلَص في عديد المواضع، إذ قال: {إنّ إبراهيم لأوّاه حليم} [التوبة: 114]، ويقول في موضع آخر: {إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب}[هود: 75]

في حين نلاحظ أنّ صفة **السفه** قد برزت في الأب الذي يتحكم فيه الاتّباع الاجتماعي والتوارث المعرفي والمعتقد الذي يصعب تغييره؛ حيث أظهر تصلّبا في الشرك وتجاوز بتعصّبه إلى التهديد والتحذير من القول إلى الفعل حدّ الرمي بالحجارة والمقاطعة: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}[مريم: 46]. وإن كان المقام يتطلّب الاستدلال بمختلف الحجج والأدلة والبراهين إلا أنّ ما قوبل به سيدنا إبراهيم عليه السلام معروف في سلوكات المشركين المتعصبين لأصنامهم ومعبوداتهم، إذ كلما جاءهم الدّليل القاطع والحق الذي ليس معه شك وكلّما أفحموا بالحجة لجؤوا إلى استعمال القوة استكبارا وعلوّا لافتقارهم أوجه الاستدلال (الشنقيطي، 1995، صفحة 361)،والحال ذاتها في مقامه مع القوم إذ السلوك العنيف الصادر منهم جعلهم يُصدرون المصير القومي على إبراهيم عليه السلام إذ {قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم}.

إذّا، حدّد السياق اللغوي مجموعة من الدلالات الهامة تمثّلت في الهداية، الضلال، العلم، الجهل، الحلم، السفاهة، السراط، الشيطان، الرحمن، الأصنام، وقد أدّى السياق الثقافي دورا أساسيا في تصنيف هذه الدلالات حسب الوجهة الفكرية والرؤية الثقافية لكل طرف، فجعل تلك الدلالات متضادة المفاهيم بعضها يقف ندا لبعض، الهداية نقيض الضلال، العلم نقيض الجهل، والحلم نقيض السفاهة، والسراط نقيض الشيطان، والرحمن نقيض الأصنام، وذلك راجع إلى كون المقام الحجاجي قد جرى بين موقفين متناقضين أحدهما جديد احتاجت آراؤه للدليل والاثبات حتى يُغيّر المفاهيم، والآخر قديم تقليدي، أو بصيغة أخرى، كان بين قوة العلم والدليل، وبين شدة الجهل والتقليد، لذلك بيّن سياق الحال أنّ العبادة ينبغي أن تكون عن علم ودليل ولا عن جهل وتقليد.

- {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}

إنّ السياق اللّغوي يُعد ركيزة أساسية في تحديد المفاهيم، كما يُعدّ المقام ركنا هامّا لا يُمكن إغفاله من التحليل الدلالي خصوصا إذا ما تعلّق الأمر بالمادة القرآنية، ذلك أنّها لا تُظهر الدلالات القومية إنّما تكشف عن جديد مفهومها لمختلف الكلمات الأساسية التي اعتقد الإنسان أنّ معناها المتعارف هو الحق، وهذا التتالي اللّفظي المترابط بواسطة القرائن السياقية المتعددة يُظهر أنّ مناظرة أخرى قد جرت بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وقومه، بيد أنّ الموقف يختلف عن موقف المناظرة في الأصنام، إذ هو موقف برهان

واستدلال على المتعارف لديهم من عبادة الكواكب، خصوصا وأنّ النّاس قد ترصّدوا أحوالها فاعتقدوا أنّ التّغييرات التي تحصل في عالمهم مرتبطة بتغيّرات أحوال الكواكب، كما اعتقدوا أنّ السعادات والنحوسات التي تحدث لهم هي من تأثيراتها، ولمّا غلب على ظنونهم هذا الاعتقاد بالغوا في تعظيمها حتّى اتخذوا لها أصناما آلهة (الدين، 1981، ج13، صفحة 38).

ويبدو جليا أنّه عليه السلام كان سائرا مع فريق من قومه ليلا لمشاهدة الكواكب، وهذا الحدث ليس اعتباطيا إنّما يدخل في مقام الإرشاد والدّعوة إلى الاهتداء والتوحيد؛ مع بيان أنّ مسؤولية المعرفة والبحث عن الحقيقة ذات أهمية واحدة للفريقين، فبعد أن ناظر في الأصنام الأرضية انتقل بالأبصار إلى الكواكب السماوية السيارة، ومادام العلم لا يمكن أن يستوطن العقل دفعة واحدة نجد السياق اللغوي يتدرج بالذهن من الأصغر إلى الأكبر، وهذا الاستدراج إنّما مجاراة على المعروف من معتقدهم؛ كونه "قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وعد طباعهم عن قبول الدلائل أنّه لو صرّح بالدّعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه، فمال على طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجّة وذلك بأن ذكر كلاما يوهم كونه مساعدا على مذهبهم بربوبية الكواكب مع أنّ قلبه صلوات اللع عليه كان مطمئنا بالإيمان." (الدين، صفحة 53)

والسياق اللّغوي إضافة إلى الثقافي يرشّح كلمة "الأفول" برهانا على عدم استحقاق هذه الكواكب للعبادة، كما أنّ تكرارها في حالة الكوكب والقمر والشمس ساهم في الرّبط المقالي إضافة إلى جعلها أوكد الحجج وأكمل الأدلة، فدلّت هذه الكلمة سياقيا على معناها المعجمي المتعارف عليه؛ إذ "يفهمون من الأفول الغروب وهم يشاهدون أنّ كلّ كوكب يقرب من الأفول والغروب فإنّه يزول نوره وينتقص ضوءه، ويذهب سلطانه ويصير كالمعزول، ومن يكون كذلك لا يصلح للإلهية" (الدين، صفحة 56)، ولمّا أفلت الكواكب حسب الترتيب اللّغوي وضع سيدنا إبراهيم عليه السلام عقولهم أمّام حقيقة أنّ الحضور الإلهي لا يغيب البتة، فالإله من دام وجوده واستمرت مراقبته فلا يأفل رمشة عين، "وقوله {هذا ربّي} أي خالقي ومدبّري فهو يستحق عبادتي، قاله على سبيل الفرض جريا على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم" (عاشور، صفحة 317). فنجده يقف محايدا بأدلته العلمية التي تفترض أنّهم أصحاب الدليل الحق، ولإثبات أنّ ربّه أبقى وأقدر وأكبر وأنّ الكوكب والقمر والشمس مربوبات آفلة طيّعة له.

إنّ هذا الموقف حدث بعد أن أصبح إبراهيم عليه السلام من الموقنين والعارفين بربّه تعالى، فقد جاءت بعدها {فلما جن عليه الليل} والفاء تقتضي الترتيب، وفيه من يقول أنّها حدثت بسبب مناظرة حدثت مع قومه والدليل على ذلك أنّ الله تعالى لما ذكر هذه القصة قال: {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه} ولم يقل على نفسه، فعلم أنّ هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يُرشدهم إلى الإيمان والتوحيد، وقول

سيدنا إبراهيم عليه السلام{هذا ربي} على سبيل الاستهزاء كما يُقال لذليل ساد قوما هذا سيدكم على سبيل الاستهزاء (الدين، صفحة 51).

ولعلّ المقام الذي جمع فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام فريقا من قومه ليلا هو مقام رؤية وتدبر وسياحة في قدرة الله لإدراك الحقيقة، فبعد أن وجّه الأبصار إلى الأصنام الأرضية للوعي بعجزها المبين غير زاوية النظر إلى السماء للإحاطة بالشائع من أصناف العبادة، وكلّما اختلفت الزوايا، اتّسعت الرؤية، وكثرت الحجج، وتعدّدت الدلالات: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[فصلت:37]، وهي رؤية إدراكية استدلالية ذلك أنّ دلالة الخلق التي تتكرّر في كل المواقف تُرجع العقل إلى الخالق وتدعو إلى البحث في دلائل وجوده من أسلافهم إلى حالهم: {أفلا تتذكّرون}، إذ ليست الأصنام أو الكواكب من خَلق أو رزق أو أنجى بل الفعل يحتاج إلى من يتجاوزها قدرة وديمومة وهو الله سبحانه وتعالى.

لذا، يبيّن سياق الحال ضرورة السير في الله تعالى وصفاته ومعانيه وآياته التي تستدعي الإنسان للرؤية الإدراكية ليس فقط الرؤية البصرية العادية، حتى لا تكون التقاليد والأهواء بدائل عن العلم وموازينه؛ فالميزان في قبول الآراء أو رفضها هو البينة العلمية، مع لزوم تطبيق منهج التجربة والمشاهدة لاكتشاف الحقائق.

- { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {

إنّ النسيج المقالي المترابط بالقرائن السياقية المختلفة وأهمها قرينة الحجاج، قد ساهم في تحديد مجموعة من الكلمات الهامة التّي تكفّل ببيان دلالتها إضافة إلى المقام وأوّلها كلمة "الخوف" وكلمة "الأمن"؛ ذلك أنّ هذا المقام الذي جرت فيه محاجة القوم كردّ على حجج سيدنا إبراهيم عليه السلام قد عبّر عن تخويف له من الآلهة كونه قد خالف النظام، خصوصا وأنّهم يعتكفون على عبادتها والتبرّك بها شعورا بالطمأنينة والأمن، "فسيّدنا إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم الحجّة المذكورة، فالقوم أوردوا عليه حججا على صحّة أقوالهم، منها أنّهم تمسّكوا بالتقليد: {إنّا وجدنا آبائنا على أمّة} كقولهم للرسول عليه السلام:{اجعل الآلهة إلها واحدا إنّ هذا لشيء عجاب}. ومنها أنّهم خوّفوه بأنّك لما طعنت في إلهية هذه

الأصنام وقعت من جهة هذه الأصنام في الآفات والبليات، ونظيره ما حكاه الله تعالى في قصّة قوم هود{إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء} فذكروا هذا الجنس من الكلام مع إبراهيم عليه السلام." (الدين، صفحة 67).

ولئن كان القوم قد جعلوا الشعور بالخوف والأمن متعلقا بالأصنام، فإنّ السياق القرآني في هذا المقام يُغيّر مفهوم المصطلحين ويجعل الشعور مستحضرا مع الله تعالى ذلك أنّ عبادتهم ضلال مبين ولا دليل على صحّتها؛ {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}. لذا، جعل المقام دلالة الأمن متعلّقة بالإيمان القولي والفعلي الحاصل في فريق الموحّدين التّابعين لسيدنا إبراهيم عليه السلام: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[النحل: 123]، أمّا الخوف فمتعلّق بالظّلم الحاصل في فريق المشركين، ولا شكّ في أن هذا السياق يُشير إلى الآخرة ويوم المحاسبة من خلال ذكر الاسم الدال على الألوهية الذي يدلّ على الحكم.

ويبدو جليا أنّه موقف غضب وإنكار شديد لعدم تحكيم العقل ولعدم إدراك القوم للحقيقة :{قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ*أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}[الأنبياء:66، 67]، وهو إذ يواصل هذه المناظرة الفعلية يتبيّن اطمئنانه ويقينه بالأمن الإلهي: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ}[الأنبيا: 68]، وعن بعض المفسرين أنّ خليل الرحمن ساعة ألقي في النّار جاءه جبريل عليه السلام وقال له: أما لك حاجة؟ فقال أمّا إليك فلا وأمّا إلى ربي فبلى، ذلك أنّه عرف تمام المعرفة بأنّ جبريل عليه السلام مخلوق ومأمور من قبل الله تعالى، وأنّ ربّه هو مالك كلّ الأسباب وهي في قبضته وحده ومسخّرة بتسخيره، وقضاء الحاجة لن يتحقق إلا بإرادة مالك الأسباب وخالقها سبحانه وتعالى، وهو لا يستنكف أن تكون له حاجة ولكنّها لله وحده، فعندئذ وبعد أن انقطعت الأسباب وحسن توكّل سيدنا إبراهيم عليه السلام على ربّه أمر تعالى النار أن تكون بردا وسلاما عليه (الشعراوي، 2002، صفحة 332).

وإضافة إلى دلالة الأمن والخوف التي غير مفهومهما السياق القرآني وأبرز من خلالهما فريقين مختلفين أحدهما خُص له الأمن، والآخر خُص له الخوف، يُساهم التفاعل السياقي في إبراز دلالة الهداية التي جزى الله بها فريق المؤمنين وحدهم أمّا فريق المشركين فمحرومون منها فالهداية فعل إلهي خالص لا قوة للإنسان فيه إلا التوضيح والبيان والإرشاد، {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ*أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ}[الأنعام: 88، 89]؛ "واعلم أنّه يجب أن يكون المراد من هذا الهدى هو معرفة التوحيد وتنزيه الله تعالى عن الشرك، لأن قال بعده {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} وذلك يدلّ على أنّ المراد من ذلك الهدى ما يكون جاريا مجرى الأمر المضاد للشرك" (الدين، صفحة 71):{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ

اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[العنكبوت: 69] وليس الأمن والخوف في الدنيا فقط بل أخرج التفاعل السياقي دلالة الآخرة في عدّة مواضع: {والَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}[الشعراء، 82] فطمع المؤمن في ربّه تعالى ويقينه الجازم بمدّه وعطائه اللامتناهي جعل مفهوم الأمن يمتد إلى الآخرة بالغفران.

إنّ هذه الدلالات التّي حدّدها التفاعل السياقي إنّما هي دلالات سياقية ثانوية تساهم بترابطها في بيان الدلالة المركزية "التوحيد"؛ لأنّ "القصة من أوّلها إلى آخرها إنّما وردت في نفي الشركاء والأضداد والأنداد" (الدين، صفحة 64)، كما أنّ النفي قد جرى لإثبات الوحدانية ومعرفة الحق، فإذا ما تحقّق اليقين المطلق به تعالى وبقدرته العظيمة أصبح الخوف منه وحده والأمن به وحده. وههنا يُبيّن سياق الحال مفهوم التسليم والعبودية المطلقة لله تعالى باحتوائه لمصير العبد إبراهيم عليه السلام.، إلى أن غيّر بأمره نواميس الكون في أن يجعل النار بردا وسلاما عليه، وهذا إنّما لشدّة اليقين في الله تعالى وقدرته العظيمة فلا يحتاج إلا للذي صوّره وفطره.{وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[يونس: 107]، فالذّي خلق وصوّر أحقّ بالخوف والأمن، وهذا يستلزم تسليم الأمور كلها بيقين أنّه الكافي والحسيب في كلّ ما يبطرأ ويُخشى، {فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي}[البقرة: 150] ذلك أنّ الثقة والتسليم للذي يُصرّف الأحكام ويُملي الأوامر ويقضي الحوائج ويفعل في كونه ما يشاء يجعل شعور بالأمن والطمأنينة دائم، فله التدبير وسبحانه من عليم حكيم.